انعكاسًا للفضائل والرذائل ، ولخواص الامتياز والضعف في أمة بعينها ، ويبدو أن هناك مفارقة في نظرة المفكرين للغة تنبع من النظرة الفلسفية للوجود .

فعندما ساد الاعتقاد بتحرُّك الإنسان في عالم مخلوق سلفًا – أصبح كل ما يواجهه له وجوده المنظَّم المتسق ، وبهذا تصبح اللغة شيئًا خارجيا بالنسبة للإنسان .

أما النظرة إلى اللغة باعتبارها من مبتكرات الإنسان – فإن ذلك يربطها بالتجربة المعيشة ويجعل منها كائنا حيا متحرِّكًا ، ويجعل الألفاظ في عملية نمو وتبادل في الدَّلالة ، حتى يمكننا القول إن الإنسان المبدع يخلق لغته كلما حاول التعبيرَ عن نفسه ، بل ربما شعر بذلك كلما سمع غيره يتكلمون ويعبِّرون عن ذواتهم ؛ ولهذا نشعر أن مجموعة القوانين والتوصيات يضعف سلطانها بمرور الزمن ولا يبقى لها وجود إلا في مجال الوظيفة التعليمية فحسب ، وعلى هذا يمكننا القول بأن اللفظ يتشكل على حسب اختيار المبدع ورغبته في استخدام اللغة للتعبير عن المدلول الذهني عنده .

وتتمثل في هذا الموقف الأخير أهمية التعبير المجازي في الاستعارة والكناية ، وما يتصل بهما من التشبيه ، باعتبارها أمورًا تتجاوز المواضعة الأصلية إلى دلالات تؤكد طبيعة الخلق اللغوي . أي أن البلاغة سيظل لها بعض السلطان ، ولكن من منطلق جديد ، يجعل من الرصد البلاغي مجرد إمكانات تعبيرية تساعد على نمو الدلالة واكتمالها ، كما تساعد على فهم الأسلوب واستيعابه ككل متكامل ، من خلال تحليل يكشف عن جميع إمكاناته النحوية والجمالية .